ــ ابداعيا ــ نموا طبيعيا ، اشأنه شأن زملائه من الشعراء الشباب . كما ان وضوح تجربته ــ فلسطينيا ــ لا تقل مستوى ، ولا تنفرد بنزعة اعتزالية ، عن الشعراء الشباب الفلسطينيين .

من « المنفى » الى « فلسطين » ، هذان هما طرفا الامتداد التي تشتمل عليه مجموعة « الطوفان واعادة التكوين » ــ كما اشرت . ونستطيع ان نتطلع الى القصائد « المنافي » و « الحضيض » و « ميجانا » كنماذج نتلمس فيها حدود الطرف الاول من رؤيا الشاعر . فها هو يتطلع في «الخليج» وكأنه يستعيد دون ان يلتفت ، اغتراب الشاعر بدر شاكر السياب ، ليرى الموج يقذف بالمحار من البحار الى الرمال . وليرى الارض وقد هرمت « لا ظل يداعبها ولا قمر يسامرها ولا حاد يغنيها » ص ٣٤ . وليرى نفسه غريبا مقطع القدمين يستنزفه المشي ، فلا قدرة له عليه ، أمام دروب الشوك والمسامير المدببة ، « والوصول ، جرح من الاحباط ينزف : مستحيل » .. هكذا الى ان « تغيب قافلة النهار » .

ان هذا الاحساس بالنفي ، يتحول في الرؤيا المبسطة والعابرة لهذه القصيدة الى « اغتراب » مجرد ، فالشاعر يحدثك مباشرة ، ولكنه لا يكتفي بذلك في قصيدة « الحضيض » . إنه هنا يضعك داخل مدينة « اليباب » أو « سدوم » ، وفيها يبرز بشكل واضح صوت الشاعر صلاح عبد الصبور لا في تركيبة الصورة ، او المعادل الموضوعي المستخدم كبديل لتجربة الشاعر الخاصة ، بل في الرؤيا العامة بكل تفاصيلها ، ان القصيدة حديث مرير مع « الخريف » القابع في « المدينة الميتة » الخريف بكل ما يحمل من دلالة « الجدب » ، والخواء والجفاف ، ولكن الشاعر يعقد في القصيدة بين معنى « الجدب » ومعنى « المنفى » والبعد عن « الاهل » او الوطن .

مددت راحتي للسماء اطلب المطر
ومدت بالغبار في الكفين والعطش !
فلا تسلني أن أبش في وجوه الزائرين
ما دمت عاجزا عن سقيهم في بيتنا
وبيتنا بعيد
تعرضت جدرانه بالسن الفئران
وأمي العطشى تريدني ، تتوق لي كالماء
لكنني كبيتنا بعيد (ص ٣٩) .

فالجدب والمنفى هما وجهان لرؤيا واحدة ، ولكن الشاعر يحاول في الجزء الثاني من قصيدة « الحضيض » ان يواجه المدينة ــ منفاه لتكون معادلا كفؤا لغربته ، هي وحدها بشعاريها الآمرين

لا تفتح الشباك !
لا تقفل الشباك !

قادرة على احباطه في ذروة نشوته الانسانية حين تدفع بأنعاها السامة لتشد على « نخلة » جسده وشهوته لتميتها ، كما تدفع بفئرانها كي تلعق .. منه نطفة الاخصاب

وتلك المدينة ، ايضا ، وحدها بشعاريها الآمرين ، انما تمثل الوجه البشع للخداع والكذب والتشويه، حيث تعقد من وراء « حجاب الاحتشام » أبشع الصفقات الرذيلة . ولكن الشاعر في اخر القصيدة يعقد الامل ــ من اجل سادوم ــ على الآتين من الاطفال ...

في قصيدة « ميجانا » تتضح بعض ملامح المرحلة الثانية لتجربة مريد البرغوثي . فها هو « بطل » يطل في عالم الشاعر ، بين انقاض المدينة الميتة ، وركام الكذب والرصاص والافق المليء بالزور ، ولكنه يظل « بطلا » ، بمعنى الشهادة ــ الانبعاث، وهذه الصورة لجدل الثورة سوف تتضح في قصائد المرحلة الثانية ، وهي سمة بارزة في شعر الثورة الفلسطيني بخاصة والعربي بعامة .

فالبطل ــ بالرغم من جهد الصحاب الذين يزرعون ولا يحصدون غير « سنابل من الافاعي السود » ــ يضيع رسمه الغريب في الجبال ، يحمله الزيتون والتلال ، وعند موسم الزيتون والجنى سيهطل الغنا .. » وبهذا تعود الحياة ثانية ، ولكنها تظل في الطرف من القصائد أملا يداعب المخيلة ، وتوقا حارا للخلاص .

ان ثمة عثرة اساسية في قصائد البرغوثي ، وان شئنا الدقة ففي معاملته للغته الشعرية ، فالصورة الشعرية التي تعرفنا عليها في القصيدة الجديدة انما هي صورة حسية في الاساس ، وهذا ما لم يتناسه الشاعر ، ولكن الذي يغفل عنه بعض الاحيان انما هو التجاوز او انتقالته المفاجئة الى الصورة التجريدية السائبة ، وهي عثرة سترافق معظم قصائد المجموعة ولكن دون ان تشكل صورة جوهرية . ومن السهولة ان نلتقط نماذج من هذه الصور المفتعلة السائبة كقوله : « ليل مقتول العينين ، والريح ببيادر محصودة » ! أو « الموج